١٣

كان ياما كان فى «أمريكا»

وكأنك تُلقى بنفسك إلى ذلك المجال لكى تهان، ولكى تكون المغفل التالى فيه.

أرنون ميلتشان لمجلة لوس أنجلوس فى أبريل ٢٠٠٠

فى يوم رأس السنة عام ١٩٨٣، قبل أيام من عرض فيلمه الجديد وهو "ذا كينغ أوف كوميدى"، كان أرنون ميلتشان فى نيويورك، منشغلاً بالعرض الأول لأحد أهم الأفلام فى مسيرته.

obeikandl.com

وفى مكان بعيد آخر، وصل ريتشارد كيلى سميث وزوجته إميلى إلى مكاتب شركة ميلكو فى هنتنغتون بيتش ليعملا على بضع طلبيات. وكان المبنى الإدارى خالياً، وهادئاً، وتمنى الاثنان أن ينجزا بعض العمل المثمر. ولم يكن هذا غريباً عليهما، إذ كانا يجدان صعوبة فى التركيز بينما يحوم حولهما سبعة موظفين وأجراس الهواتف ترن بلا انقطاع.

وكانت العطلات الأسبوعية والإجازات وقتاً مناسباً لإنجاز بعض الأعمال.

وما أن وصلا المبنى، ذهب كل منهما إلى مكتبه. فى البداية ولم يلاحظا أى شىء غير معتاد، إلى أن أرادت إميلى أن تكتب شيئاً على الآلة الكاتبة. ومشت حتى منطقة الاستقبال ولاحظت أن الآلة الكاتبة غير موجودة. ثم نظرت حولها ولاحظت اختفاء بعض أجهزة الحاسوب، فصرخت تستدعى زوجها ريتشارد الذى انخلع قلبه

خوفاً وأتى مهرولاً.

وتفقدا سريعاً كل مكتب، وكل غرفة، وكل منطقة تخزين، وحتى المخزن الخلفي. اختفت الأجهزة الكهربائية وجهاز التشويش على الإشارات، وهو جهاز بالغ الحساسية. كانت وزارة الخارجية قد رفضت تصدير تلك الأجهزة جميعها إلى إسرائيل.

وكانا يعرفان أن الحواسيب المفقودة تحوى معلومات سرية.

وكان أول ما خطر ببالهما هو التجسس. وانتابهما إحساس عميق بالانتهاك، وجنون الارتياب، والخوف. وأدرك ريتشارد أن تصريحه الأمنى يُلزِمه بالإبلاغ بحالات الاقتحام للمباحث الفدرالية. أى مشاكل ستنجم عن هذا؟ وعلم أن أول سؤال سيطرح عليه سيكون:

obeikandl.com

مَنْ فى رأيك فعل هذا؟

وتذكر آخر مكالمة هاتفية بينه وميلتشان، حيث أخبره أنه قد فُرضت عليه معايير أكثر صرامة، وأنه لن يستطيع الاستمرار فى إرسال مفاتيح الكرايترون بنفس الطريقة.

"لماذا لا ترسلها كما كنت تفعل من قبل؟" سأله ميلتشان. بيَّن له سميث أنه لم يعد يستطيع فعل ذلك، وفى النهاية وضع ميلتشان السماعة فى وجهه، محبطاً. وكانت تلك آخر مرة يتلقى فيها سميث مكالمة منه. بل، تبين أيضاً أنها كانت آخر محادثة مباشرة بينهما.

اتصل سميث بقسم شرطة هنتنغتون بيتش وبالمباحث الفدرالية للإبلاغ عن حادث السطو. ووصلت الشرطة فى ظرف دقائق وحررت تقريراً جنائياً. وسريعاً قرروا أن اللص دخل المبنى عبر فتحة السقف وأنه أنزل نفسه بواسطة حبل. "لا يبدو كعمل احترافى" أفاد المحقق، ثم طلب من سميث أن يعطيه قائمة بكل الموظفين الحاليين والسابقين. ووفقاً لتقرير الشرطة، قرر سميث أن ثمن المعدات المسروقة يُقدر بحوالى ٥٠ ألف دولار، منها ١٢ ألف دولار من المعدات الإلكترونية التى تخص وكالة ناسا.

فى اليوم التالى وصل عميل فدرالى لاستجواب سميث، فى الأغلب لجمع تفاصيل عن عملية السطو، ليقرر درجة حساسية الأغراض المسروقة، وليسمع من سميث ما إن كان لديه فكرة عمن وراء الحادث.

وصف سميث آخر مكالمة له مع ميلتشان. وحينذاك كان قلقاً للغاية بشأن شحنات الكرايترون المتعددة التى أرسلها إلى إسرائيل بدون استخراج تراخيص ذخائر، وشعر أنه بدلاً من أن ينتظر اكتشاف المباحث الفدرالية لأمر الشحنات،

كانت أفضل استراتيجية له أن يذكر الشحنات ببراءة وبصراحة، ويعبر عن قلقه بشأن ارتكابه لأخطاء فى إجراءات الشحن. واستمع العميل الفدرالى فى صمت وهو يدون الملاحظات. وطلب من سميث أن يُسمِى المشتبه بهم الأكثر احتمالاً. وفى تلك القائمة كُتِب اسم أرنون ميلتشان.

كانت الأمور تتداعى بسرعة ولم يكن سميث قد استوعب بعد دلالات ما يحدث. هل سيفقد مشروعه الآن بعدما رفض طلب الرجل الذى يمده بمعظم دخله؟ كيف ستُفسر مقابلته مع المباحث الفدرالية؟ ومن منطلق الخوف، فقد كان عازماً على التصرف بصراحة، وهى غريزة لم تكن لها أن تنفعه بالضرورة.

وعقب مقابلته مع المباحث الفدرالية، اتصل سميث بميلتشان عدة مرات لكنه لم يتمكن من الوصول إلا لمساعدته. وكانت ديبورا موجهة من قبل رئيس لاكام الجديد رافى إيتان بدعم العلاقات الإيجابية مع سميث حتى تستمر إسرائيل فى تلقى التحديثات لتضع استراتيجيتها وفقاً لها، بدون الحاجة للتنصت على هاتفه. ثم طلب إيتان من ميلتشان أن يتجنب أى اتصال مستقبلى بشركة ميلكو، أو بسميث، والذى وصفه بأنه أضعف حلقة فى سلسلة علاقات ميلتشان، وقال إيتان إن سميث قد احترق!.

جوهرياً، كانت تلك نهاية دور شركة ميلكو كعملية منتجة لوكالة لاكام استمرت ثلاثة عشر عاماً. وكان الوقت قد حان لإغلاق هذا الملف وللمضى قدماً فى طريق تحديات أخرى. وأخبر إيتان ميلتشان أنهم ليس بوسعهم أن يكونوا عاطفيين فى مثل تلك الأمور.

وتحرك قسم شرطة هنتنغتون بيتش والمباحث الفدرالية بشكل سريع وغير معتاد وبإصرار فى قضية شركة ميلكو، مستخدمين كل أدوات التحقيق التى فى

حوزتهم، وبالفعل ألقوا القبض فى غضون شهرين على مشتبه به، موظف صغير، كان يعمل بشكل مؤقت فى مخزن شركة ميلكو.

وعندما أغارت الشرطة على منزل والديه، وجدوا المرآب عامراً بالسلع المسروقة، التى تشمل الأغراض المسروقة من ميلكو.

واعترف الشاب بالسرقة، بالإضافة إلى عمليات سطو أخرى فى المنطقة. والغريب أن المباحث الفدرالية وقّعت اتفاقاً مع السارق، وأطلقوا سراحه بكفالة والديه والبقاء تحت وصايتهما. وأبلغوه أنه لن يحاكم إن وافق على التعاون الكامل فى إعادة كل الأغراض المسروقة من شركة ميلكو.

وشعر سميث بقدر كبير من الارتياح، وطُلب من إميلى الحضور إلى مخزن أحراز قسم شرطة هنتنغتون بيتش لاستعادة الأغراض المسروقة. ولدى وصول إميلى اقترب منها رجل ذو حلة داكنة وسألها هل هذه معداتك؟. وعندما أكدت أنها تلك، أخرج شارته وعرف نفسه بأنه عميل إدارة الجمارك الأمريكية، وطلب منها الحديث مع رئيس الشركة.

انتابها إحساس مفاجئ بالهلع وأخذت تفتش فى حقيبة يدها بارتباك لتعطيه الكارت الخاص بزوجها، وقالت للعميل إنه يمكنه الاتصال به مباشرة.

وفى الأسابيع التالية، زار عميل الجمارك الأمريكية شركة ميلكو عدة مرات، أحياناً بدون موعد مسبق، ليتحدث مع ريتشارد سميث.

وأحياناً أخرى كان يُلقى أسئلته عبر الهاتف، لكن لم يكن يمر يوم واحد بدون أى شكل من الاتصال من هذا العميل. فى البداية أبدى سميث تحمساً للتعاون، وكانت النقاشات استطلاعية لطيفة ومعتدلة، تشمل أسئلة بريئة عن حركة الشحن

بالشركة وإجراءات إدراج الملفات. ثم أصبحت الأسئلة الودودة ببطء وبمرور الأيام أكثر صرامة، حتى بدأت تبدو كتحقيق.

كانت الأيام والأسابيع والشهور التى تلت حادث سطو ميلكو عصيبة للغاية. إذ توقفت الطلبيات وحتى الاتصالات من إسرائيل فجأة، وكان ثمة عميل فدرالى يتقصى الأوضاع بشكل يومى. وخلال بضعة أشهر أصبح من الواضح وجود استقطاعات كبيرة فى الطلبيات. وعمل سميث يائساً لتأمين عقود من وكالة ناسا ومن حلف شمال الأطلسى، ومن البنتاجون، لكنه تمكن من توقيع بضعة عقود استشارية فحسب تقدر بعشرات الآلاف من الدولارات، وهو مبلغ لا يكاد يكفى لتشغيل شركة ميلكو بمستواها الحالى.

وانقطع تدفق الأموال. وخشى سميث من تخفيض درجة تصريحه الأمنى ومن زيادة أسئلة عميل الجمارك الذى يتربص به. وقرر تخفيض النفقات بشكل جذرى بغلق مكاتب ميلكو فى الساحل الشرقى، والإبقاء على نفسه وزوجته وأبنائه فحسب فى كشوف المرتبات كموظفين بدوام جزئى. ولكن حتى مع تلك التخفيضات، فلم تكد ميلكو تتمكن من الصمود، وكان بانتظارها ما هو أسوأ.

وفيما تراكمت متاعب شركة ميلكو تدريجياً، كان ميلتشان مشغولاً بالعرض الأول لفيلمه الجديد "ذا كينغ أوف كوميدى" أو "ملك الكوميديا"، وهو فيلم جرىء. يلعب فيه روبرت دى نيرو دوراً غير معتاد بالمرة حيث يجسد روبرت بابكين المهووس بجمع توقيعات المشاهير على أبواب المسارح والكوميديان المتطلع الذى تفوق طموحاته المهووسة بكثير أية موهبة فعلية لديه. يؤدى لقاء له بالصدفة مع جيرى لانغفورد والذى يلعب دوره جيرى لويس، وهو كوميديان ومقدم برنامج حوارى شهير، لأن يظن بابكين أن فرصته السانحة قد جاءت أخيراً. لكنه كان

مخطئاً. وفى محاولة يائسة للاشتراك فى البرنامج بأى شكل، يختطف لانغفورد ويتفاوض على ظهوره فى البرنامج، والذى يقدمه البديل الذى يلعب دوره تونى راندال. ويلّقى أداء بابكين نجاحاً غير متوقع، لكن يتم القبض عليه بعد البرنامج. المشهد الأخير يظهر فيه بابكين وهو يعتلى المسرح فيما يبدو كحلقة تليفزيونية خاصة ذات جمهور مباشر ومذيع يقدمه ويمتدحه بحماس. ومن خلال السخرية، يتهكم الفيلم على فكرة النجاح الذى يأتى كثمرة للموهبة لا الحظ.

ولم يحظ الفيلم بنجاح كبير فى شباك التذاكر، بالرغم أنه من السهل أن نتفهم سبب إعجاب ميلتشان الشديد بالنص. وبمرور الوقت، تم الاحتفاء بالفيلم لتصويره الفنى والساخر معاً لبيزنس الاستعراض الأمريكى.

أثناء تصوير فيلم "ذا كينغ أوف كوميدى" نشأت علاقة قوية بين ميلتشان ودى نيرو استمرت لعقود. وقدم ميلتشان دى نيرو لموشيه ديان وتصوره يؤدى شخصية ديان فى فيلم طويل عن حياته، لكنه لم يستطع إقناع دى نيرو، ولا يزال ميلتشان يريد إنتاج ذلك الفيلم الذى لم يتحقق بعد.

خالف ميلتشان طبيعته ليدعم علاقته بدى نيرو شديد الخجل، بما فيها استغلال خدمات مساعدته الخاصة إيتى كانر لتدبير صديقات للنجم السينمائى. وتصف لنا كانر كيف تلقت مكالمة من ميلتشان ذات يوم طلب فيها التعرف على امرأة سوداء جميلة كانت قد ظهرت على غلاف مجلة الأزياء الفرنسية إل. تقول كانر، كانت تلك عملية كوكبية. "اتصلت أولاً بمكتب المجلة فى باريس للتعرف على العارضة، فأخبرونى أنها فى جلسة تصوير فى لوس أنجلوس. فتوصلت لمكانها فى لوس أنجلوس وأقنعتها بأن تستقل أول طائرة إلى نيويورك من أجل اجتماع مع روبرت دى نيرو". وإذ تتلاعب تخيلات النجومية بعقلها، وصلت العارضة إلى

نيويورك على حساب ميلتشان، لتقضى ليلة فى المدينة مع روبرت دى نيرو.

وبعد فترة وجيزة من العرض الأول لفيلم ذا كينغ أوف كوميدى، وبينما كان المدعى العام لمدينة لوس أنجلوس يبنى أركان قضيته سراً ضد شركة ميلكو، كان أرنون مشغولاً بشأن شخصى خطير. إذ تلقى أثناء التصوير فى الولايات المتحدة، مكالمة عاجلة من ابنه المراهق ياريف.

فى ذلك المساء، خرج ياريف ولم يعد للمنزل متجاوزاً بكثير الموعد المحدد له. وعندما عاد للمنزل، صُدم عندما وجد أمه بريجيت قد حزمت حقيبته وطلبت منه الرحيل عن المنزل.

وعرف أرنون بالأمر بينما كان، فى طريقه إلى لوس أنجلوس، وكانت تلك لحظة مؤلمة ومصيرية. ووجه مساعده البرتغالى فى الحال خوزيه أوليفيرا الذى كان يتولى أمر قَصّره، لاصطحاب ياريف وإحضاره إلى حى مونتفور لامورى. وعندما استوعبت أليكساندرا وإليانور ما حدث لأخيهما، رفضتا البقاء من دونه.

وفى ظرف أيام حزمت بريجيت حقائبهما أيضاً، وطردتهما من المنزل.

ومنذ ذلك اليوم أصبح أرنون ولى الأمر الوحيد لأبنائه وأصبح القصر منزلهم مجدداً. وكانوا كلهم يرتادون مدارس إعدادية داخلية، وكانوا يقضون الإجازات مع والدهم يجوبون أنحاء العالم، ويمضون الصيف فى إسرائيل. "أبنائى هم أقرب الناس إلىّ، وأهم مصدر لفرحتى" هكذا يقول أرنون.

وفى زيارة لاحقة لإسرائيل، نزلت بريجيت فى الشقة العلوية. وعندما اكتشفت مجموعة من الصور لأرنون فى صحبة نساء عديدات، منهن أُولا وأوليريكا، مضت تدمر الشقة، ومزقت الصور، ودمرت الأثاث والقطع الفنية الثمينة. وبهذا بلغ السيل

الزبى وكانت تلك هى النهاية الأخيرة لما ظل لفترة علاقة ودودة بعد الطلاق.

كان ميلتشان من أشد المعجبين بسيرجيو ليون، الذى عرّف العالم على أفلام إيطالية الطراز على نمط أفلام الغرب الأمريكية مثل "أفيست فول أوف دولارز" أو حفنة من الدولارات، أو الطيب والشرير والقبيح، ووانس أبون أتايم فى أمريكا أو كان ياما كان فى أمريكا، ويُشهد له بفضل اكتشاف كلنيت إيستوود.

رفض ليون فرصة من شركة باراماونت بيكتشرز لإخراج فيلم "الأب الروحى"، وهو أحد أهم الأفلام قاطبة، وقضى العشرة أعوام التالية فى الإعداد لتحفته الفنية عن العصابات الإجرامية أو "وانس أبون أتايم إن أمريكا". لم يرغب أحد أن يضطلع بالموضوع، هذا بالطبع حتى قابل ليون ميلتشان بالصدفة، وجاء فى وصفه للقاء ما يلى:

"حدث هذا فى مهرجان كان السينمائى، كنت أحاول بيع فيلم آخر هناك شبيه بفيلم ذهب مع الريح. وفجأة رأيت هذا الرجل يجلس فى شرفة عملاقة فى فندق كارلتون مطلة على الشاطئ، شخص يشبه بودا، أو أورسون ويلز، أو سيرجيو ليون، لم أكن متأكداً. اقتربت منه ولاحظت أنه لم يكن بودا ولا أورسون ويلز، لذا لابد وأنه سيرجيو ليون. قدمت نفسى بالفرنسية وأخبرته أننى من أشد المعجبين بأفلام الغرب الأمريكى إيطالية الطراز التى يخرجها".

أخبرته إنه شرف كبير لى أن أقابله وسألته عم يعمل به حالياً، فأجابنى ليون "يوجد هذا الفيلم الذى أعمل عليه منذ عشرة أعوام، ولا أحد يريده، إنه فيلم أمريكى ضخم، أتريد أن تسمع عنه؟".

فوجئ ميلتشان وشعر بالفخر إذ جلس بجوار المخرج الأسطورى وأنصت بتركيز. وكانت الساعة الثالثة أو الرابعة عصراً عندما بدأ ليون فى وصف الفيلم،

مشهداً تلو الآخر، لقطة تلو اللقطة:

"والآن ستصعد الكاميرا، وستقترب سيارة، فتقترب منها الكاميرا"... ومضى لأكثر من أربع ساعات بهذا الأسلوب بينما بدأت الشمس تغرب ببطء فى البحر المتوسط. عندما انتهى ليون، أخبره ميلتشان أنه يريد أن ينتج هذا الفيلم. وفوجئ ليون، وسأله ما إن يمتلك القدرة المالية. فأجابه ميلتشان فى البداية بالتأكيد، ثم سأله بعدها عن الميزانية. وجاءت الإجابة أنها ٢٢ مليون دولار، فلم يحرك ميلتشان ساكناً. لكن بالطبع، لم تكن تلك نهاية الحديث.

ذات ليلة، بعد موعد الزيارات بكثير، تسلل ليون إلى غرفة ميلتشان فى نيويورك. وفجأة سمع ميلتشان صوتاً رقيقاً ذا لهجة إيطالية قوية يقول "أرنون! أرنون! أحتاج لمزيد من المال".

وإذ هو مصدوم ومُروَّع، استيقظ ميلتشان على كيان ضخم يجلس على الكرسى المجاور له.

"رباه! هل هذا أنت يا سيرجيو؟ هل جننت؟".

"أرنون لا أستطيع النوم، أحتاج لمليونى دولار أخرى، أحتاج لاستئجار أوريينت إكسبريس".

وجد أرنون صعوبة فى استيعاب هذا المنطق."ولِم تحتاج لاستئجار قطار أوريينت إكسبريس؟ ألا يمكننا استئجار قطار عادى وتقديمه على أنه أوريينت إكسبريس؟!".

ولم يقبل ليون بهذا وأجاب لأن الجمهور سيمكنه تمييز أنه ليس أوريينت إكسبريس. ورفض مغادرة الغرفة حتى ضمن له ميلتشان زيادة ميزانية الفيلم.

وفى النهاية بلغت تكلفة الفيلم ٢٨ مليون دولار ويعتبر حتى يومنا هذا من أكثر الأفلام تفرداً وغرابة فى تاريخ السينما.

ويرى أغلب الناس أنه أفضل فيلم أخرجه ذلك المخرج الموهوب بإطلاقه، وهو الفيلم المفضل لميلتشان وهو فى رأيه أفضل فيلم أنتجه قط. كان يحوى كل شىء آسر تميز به عالم الإجرام السرى وواقعه الكئيب اللذين قدمهما الفيلم.

"وانس أبون أتايم إن أمريكا" أو "ذات مرة فى أمريكا" فيلم ملحمى، وهو قصة مسلسلة عن حياة مجموعة صغيرة من أفراد العصابات اليهود فى نيويورك على مدار ٤٠ عاماً، وتُروى فى أغلبها بأسلوب الارتجاع والنظر للمستقبل معاً. ويتمحور الفيلم حول المجرم البسيط ديفيد أرونسون الملقب بنودلز وشركائه فى عالم الجريمة طيلة حياته وهم: ماكس وكوكى وأصدقاؤهم. ويتتبعهم الفيلم إذ ينشأون فى حى "إيست سايد" اليهودى الفقير فى نيويورك فى العشرينيات حتى أواخر الستينيات، ويعود نودلز العجوز إلى نيويورك بعد أعوام عديدة من الاختباء ليعيد اكتشاف ماضيه.

كان ميلتشان لا يزال قليل الخبرة نسبياً، وعندما أعطاه ليون نسخة من النص، صدم عندما رأى أنه مكون من ٣١٧ صفحة، وحتى يومنا هذا، يعد أطول نص قرأه ميلتشان بإطلاقه.

وحذر ليون ميلتشان منذ البداية قائلاً: صغيرى، يجب أن تتحلى بالصبر.

وأجاب ميلتشان بأنه لم يكن يعرف أن الفيلم بهذا الطول.

أجاب ليون: لا أعنى طول الفيلم يا صديقى، أعنى فى تعاملاتنا مع الممثلين.

وإذ بدأ ليون فى اختيار الممثلين، استأجر ميلتشان شقة فى نيويورك فى

شارع ٤٨ بين شارعي ساكند وثيرد، بجوار شقة الممثلة الأسطورية كاثرين هيبورن. وفكرا في مئات الممثلين لأدوار الفيلم المتنوعة وكانت تلك عملية طويلة وصعبة في حد ذاتها. وفي مطلع عام ١٩٨١، عرض على بروك شيلدز دور "ديبورا غيلي" بعدما شاهد سيرجيو ليون فيلم "ذا بلو لاغون" أو "البحيرة الزرقاء"، بزعم أن لديها القدرة على أداء دور شخصية ناضجة. لكن إضراب الكتّاب أخر المشروع، وانسحبت شيلدز قبل بدء بروفات الأداء.

كان هناك أكثر من ٣٠٠ متقدم للعب دور شخصية البطلة، ومنهم كيم باسينغر وغلين كلوس وجيمي لي كيرتس وجينا ديفيس وكاري فيشر وداريل هانا وليزا مانيلي وميشيل فايفر وميغ رايان وسوزان سارندون وميريل ستريب وديبرا وينغر، وهن كل سيدات النخبة الأمريكيات تقريباً.

وبانتشار خبر الإعداد للبدء في الإنتاج، تلقى ليون شخصياً مكالمات عديدة من أبرز الممثلين الموهوبين، مثل وارف بيتي.

ومثلما فعل مع معظم الممثلين الآخرين، فقد رفضه ليون وقال لميلتشان:

إنه مصفف شعر، بحق الرب!

"لكنه لم يلعب دور مصفف شعر إلا في فيلم شامبو" هكذا أجاب ميلتشان أملاً في تغيير رأي ليون.

وبعد عدة أيام تلقى مكالمة من كلينت إيستوود لكنه قال: كلا، كلا! لقد اخترته بالفعل في ثلاثة أفلام، أحتاج لدم جديد.

وإن كان هناك شخص واحد كان ليون يريده أن يشترك بالفيلم، فقد كان ذلك هو روبرت دي نيرو، والذي لعب دور البطولة في الفيلم الذي أنتجه ميلتشان "ذا

كينغ أوف كوميدى".

ووفقاً لميلتشان، لم يكن من السهل إقناع دى نيرو بقراءة النص الطويل، لكن فى النهاية زعم دى نيرو أنه قرأ النص بأكمله وقال إنه يريد مقابلة ليون.

وتم تحديد موعد الاجتماع فى فندق مايفلاور فى نيويورك سيتى. ارتدى ليون الذى كان بديناً آنذاك، روباً فضفاضاً فى اجتماعهم بجناح علوى حجزه ميلتشان لذلك الغرض. وتقرر ترك ليون ودى نيرو ليتحدثا على حدة بينما انتظر ميلتشان مكالمة منهما فى غرفة مستقلة.

وعندما رن الهاتف أخيراً، كان دى نيرو يهمس على الطرف الآخر.

أرنون! أريد التحدث معك.

وهرع أرنون إلى غرفة دى نيرو وقرع الباب، فقال دى نيرو.

لا يمكننى العمل بالفيلم

ولِم لا؟ سأل ميلتشان مصدوماً.

اصطحب دى نيرو ميلتشان إلى الحمام وأشار للمرحاض، فتحير ميلتشان

ألا ترى أن ليون تبول على مقعد المرحاض الخاص بى؟ سأله بلهجة لا تصدر إلا عن روبرت دى نيرو.

وكان المقعد ملوثاً بالبول بالفعل قال أرنون "بربك يا دى نيرو! لم يفعل هذا متعمداً، إنه بدين ولم يُر".

"مستحيل يا أرنون، لقد فعل هذا متعمداً" وأضمر دى نيرو أن تلك كانت لعبة لإظهار قوة لتحديد مناطق الهيمنة، ولتوضيح من المسيطر الحقيقى.

وهدّأه ميلتشان، وفي النهاية أُختير دى نيرو لدور البطولة كرجل العصابات اليهودى ديفيد أرونسون.

ولم يتم ملء دور بطلة الفيلم إلا قبل فترة وجيزة من بدء التصوير بعد بحث دءوب. كان ميلتشان يميل لاختيار إليزابيث مكغافيرن، والتى تدرس فى معهد جوليارد وكان قد عُرِض عليها دور فى فيلمها الأول "أناس عاديون"، وهى مازالت تدرس، فى دور صديقة مراهق مضطرب لعب دوره تيموثى هاتون وكانت ماتزال فى العشرين من عمرها. وكان ذلك هو الفيلم الأول لروبرت ريدفورد كمخرج، وفاز بأربع جوائز أوسكار. فى العام التالى تم ترشيح مكغافيرن لجائزة الأوسكار لأفضل ممثلة مساعدة لتجسيدها دور ممثلة مطلع القرن العشرين إيفيلن نيسبت فى فيلم "راجتايم"، والتى ظهرت فيه عارية فى مشهد طويل للغاية ومثير للجدل. ومن بين قائمة طويلة من نجمات سعين وراء هذا الدور، حصلت عليه إليزابيث مكغافيرن. كانت تصغر أرنون بـ١٧ عاماً وكانت عشيقته أيضاً.

قاوم روبرت دى نيرو، الذى لم يكن يعرف بعد بطبيعة علاقة ميلتشان ومكغافيرن، منحها الدور. وتصادم دى نيرو وليون حول ذلك. وكان دى نيرو يشكو باستمرار بينما كان ليون يقف صامتاً وينظر فى ساعته. وعندما انقطعت أنفاس دى نيرو سأله ليون "هل انتهيت؟" وتحير دى نيرو إذ مضى ليون قائلاً "عادة ما يستغرق الممثل ٢٠ دقيقة لكى يكف عن الشكوى، ولم تستغرق أنت سوى ١٢ دقيقة! الآن عليك أن تتذكر أنه ليس فيلمك، بل هو فيلمى أنا وأنت مجرد مشارك فيه"، قالها ليون بغضب عارم. ومجدداً تدخل ميلتشان وتحدث على انفراد مع دى نيرو، وأياً ما قاله ميلتشان، فقد جعل دى نيرو يلين.

وكما يتذكر ميلتشان:

"كان هناك مشهد فى الفيلم يفترض أن يغتصب فيه دى نيرو إليزابيث مكفافيرن فى المقعد الخلفى لسيارة ليموزين، بعدما تخبره أنها سترحل إلى هوليوود لتحقق حلمها. وكان مشهداً معقداً للغاية. وفجأة اقترح دى نيرو أن ألعب دور سائق السيارة الليموزين. وكانت ردة فعلى متشككة، فبعد كل شيء، أنا لست ممثلاً. وكان المشهد يشغل ٤ صفحات فى النص، أى أنه لم يكن دوراً تافهاً. وعلى أية حال، راقت لى الفكرة، وأجرى سيرجيو تجربة أداء لى. وبعد هذا اختفى تشككى فجأة ووجدت نفسى وقد أردت أن أؤدى هذا الدور أكثر من أى شيء آخر فى حياتى. كان أشبه باغتنام الفرصة. وأصبح من أهم طموحات حياتى. لكن سيرجيو من ناحية أخرى، لم ينبهر بأدائى ورفض مشاركتى. أنا، المنتج وممول المشروع برمته، تم رفضى! واستشطتُ غضباً. وكنت متأكداً أن الجميع سيأتوننى جاثين على أيديهم وركبهم لكننى عوملت كأقل كومبارس فى موقع التصوير. واستمروا فى تجارب الأداء للدور أمام عينى فيما شعرتُ بالإحباط الشديد.

ثم تلقيت مكالمة "نحن مستعدون لتصوير المشهد، احضر". لكننى كنت فى باريس وكان المشهد سيتم تصويره فى ذات الليلة فى كندا. "لا مشكلة" هكذا أخبرونى على الهاتف. "التذاكر فى انتظارك فى المطار. هناك ثلاثة مرشحين آخرين للدور وتم استدعاؤهم أيضاً". وانزعجت للغاية لذلك، لكننى وصلت للمطار على أية حال. ولم أجد اسمى مدرجاً فى كشوف الدرجة الأولى ولا فى درجة رجال الأعمال. أين وضعونى؟ فى مقاعد الدرجة السياحية فى الخلف بجوار الحمامات.

وأخيراً وصلتُ إلى كندا وذهبت مباشرة إلى موقع التصوير. وكان وكأنه السحر. كل شيء كان مضاءً، وها هما الرب ونائبه، أو ليون ودى نيرو. صديقاى المقربان اللذان كانا يتقاضيان أجرهما منى، فتقربت منهما بود قائلاً:

"سيرجيو، روبرت، ها أنا ذا! نظرا إلىّ باستهانة وكأننى فتى توصيل الشطائر، أو ممثل غر دخيل طموح، أو طالب شهرة. وكانا شديدى التركيز على مهامهما. وكنت بانتظار التوجيهات.

قلت لليون "أنت تعرف أنه دورى الأول" لكنه تجاهلنى. والتفت دى نيرو تجاهى وقال انظر! هذا الفيلم ليس عنك وليس عن سائق الليموزين. بل عن الشخصية التى قررت ظهورها بالفيلم، تذكر هذا.

تطلب تصوير المشهد إعادته ١٣ مرة. وأوضح ليون لدى نيرو بالتفصيل كيف يغتصب إليزابيث مكغافيرن وطُلب منه أن يعيد توجيهاته جسدياً قبل بدء التصوير، ولم أستطع أن أتذكر ولو مرة واحدة كيف أفتح باب الليموزين. فى الإعادة الثانية نسيت أن أوقف السيارة الليموزين حيث يفترض لى إيقافها. وفى ذلك الوقت، كان دى نيرو يكرر اغتصاب عشيقتى فى المقعد الخلفى، ١٣ مرة! تعرفون روبرت دى نيرو، وأنه ممثل حقيقى، كل مشهد كان يصوره بقلبه! وكان يُفترض منى أن أوقف السيارة الليموزين وأسأل إليزابيث هل أنت بخير؟ فيما أخرج من السيارة وأفتح الباب وأخلع قبعتى، وهذا كل شىء.

وفى النهاية، نقّحوا المشهد حتى لم يتبق لى سوى النطق بجملة واحدة "هل أنت بخير؟"، وحتى بعد ذلك، لم يحب ليون نبرة صوتى، لذا استأجر ممثلاً آخر لينطقها بصوته. كانت تجربة مهينة للغاية، لكنها كانت مثيرة فى ذات الوقت.

من الشائق أن روبرت دى نيرو كان قد عارض اختيار مكغافيرن لدورالبطلة واقترح لاحقاً على أرنون أن يؤدى دور سائق الليموزين فى مشهد الاغتصاب. وبعد أعوام، شعر ميلتشان بتماهٍ تام مع شخصية هيو فينيمان فى فيلم "شكسبير يقع فى الحب"، أى رجل المال الذى تم التفضل عليه بدور صغير فى مسرحيته شريطة

أن يعد بحسن التصرف وعدم التدخل.

فى نهاية التصوير، كان لدى ليون ما بين ٨ إلى ١٠ ساعات من اللقطات. وتمكن بمساعدة المونتير نينو باراغلى، من تقليصها لحوالى ٦ ساعات، وأراد أن يعرضها كفيلمين مستقلين، مدة كل منهما ٣ ساعات. لكن شركة وورنر براذرس رفضت، وأُجبِر ليون على تقصير فيلمه مرة أخرى، لتكون مدته فى النهاية ٢٢٩ دقيقة.

وتم عرض النسخة الأقصر فى مهرجان كان السينمائى واستُقبلت بحماس كبير. وفى نهاية العرض، وقف الجمهور ليصفقوا لمدة غير مسبوقة وهى ١٥ دقيقة.

وفى أوروبا، استُقبِل الفيلم بحماس من الجماهير والنقاد على حد سواء وحقق نجاحاً تجارياً ضخماً، يربو على ١٠٠ مليون دولار.

لكن فى الولايات المتحدة، كانت شركة وورنر براذرس لا تزال مستاءة من طول الفيلم بعدما تم تسويقه تجريبياً فى بوسطن أمام جمهور نفد صبره وأصدر صيحات استهجان منذ البداية عندما عرفوا أن الفيلم مدته تتجاوز الثلاث ساعات. ومارست الشركة حقوقها وفقاً للعقد، ونقحته ليصبح ١٣٩ دقيقة، وهى ما اعتبرته مدة مقبولة تجارياً. ونتيجة لذلك، فشل الفيلم فى الولايات المتحدة وحقق ثمانية ملايين دولار فقط.

وبمرور الأعوام، حقق الفيلم عودة قوية فى سوق الفيديو والإسطوانات الرقمية الأمريكى من خلال إصدار النسخة الأطول. وتعتبر النسخة الأطول من الفيلم متفوقة عالمياً على النسخة التى نُقحت بشكل مجحف والتى عرضت فى الأصل فى أمريكا.

يذكر جيمس وودز، والذى يعتبر فيلم "وانس أبون أتايم إن أمريكا" أفضل أعمال ليون، على الدى ڤى دى الوثائقى الخاص بالفيلم أن أحد النقاد رأى أن الفيلم هو الأسوأ فى عام ١٩٨٤، ليصفه بعد أعوام بأنه أفضل فيلم فى الثمانينيات بعدما شاهد النسخة الأصلية الطويلة. ووصف روجر إيبرت النسخة الأصلية غير المنقحة من الفيلم بأنه أفضل فيلم يصف حقبة حظر الكحوليات.

فى عام ٢٠٠٢، عندما سألت مجلة سايت آند ساوند عدة نقاد إنجليز عن أفلامهم المفضلة فى الـ٢٥ عاماً الأخيرة، جاء فيلم "وانس أبون أتايم إن أمريكا" فى المركز العاشر.

وسرعان ما رفع الفيلم مكانة ميلتشان فى صفوف هوليوود ليصبح من أهم المنتجين، وليستحق صيت المجازف الجرىء.

لكن للأسف، فقد كان لفيلم "وانس أبون أتايم إن أمريكا" أثره البالغ على صحة ليون، ليصبح فيلمه الأخير، وفى ٣٠ أبريل عام ١٩٨٩، مات بسكتة قلبية.

لكن قبل فترة وجيزة من موته، أعطى ليون صديقه أرنون هدية لا تزال حتى يومنا هذا تأخذ مكانها بجوار مسبحه فى قصره مونتفورت لاموري، وهى تمثال بالحجم الطبيعى لرجل يجلس أمام مائدة، عليها طبق مليء بالمال. اسم التمثال "العشاء الأخير لرجل طماع". لم تكن تلك رسالة مضمرة، بل تذكرة فقط بأن الحياة قصيرة، وما نفعله بوقتنا المحدود هو ما يهم.

استمرت صداقة أرنون وروبرت دى نيرو، الذى يعيش فى عزلة تامة حتى يومنا هذا. وكما فى حالة ليون، فقد عبّر عنها من خلال عمل فنى، حيث يوجد رمز لتلك الصداقة معلق بمكان بارز فى منزل أرنون فى ماليبو، وهو عبارة عن لوحة تجريدية رسمها والد روبرت دى نيرو وأعطاها له كهدية.

ومن الأصدقاء المقربين الآخرين الذين تعرف عليهم أرنون فى تلك الحقبة كان رئيس الوزراء الكندى بيير ترودو. وكان ترودو من أشد المعجبين بسيرجيو ليون، وعندما سمع أن ليون يعمل فى فيلم ضخم، دبر اجتماعاً معه فى روما فى محاولة لإقناعه بتصوير الجزء الأخير من الفيلم فى كندا.

قدّم ليون ترودو لميلتشان وسرعان ما توافقا. ولم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً لإقناع ميلتشان بالموافقة على التصوير فى كندا، واستمتع ثلاثتهم بأمسية طويلة من الأطعمة الإيطالية والنبيذ الفاخر.

وبعد أسبوع، كان أرنون ينزل فى فندق صغير فى إيست هامبتون بنيويورك، عندما تم استدعاؤه إلى الهاتف الوحيد فى الفندق.

– مرحباً، أرنون؟ أنا بيير، هل تتذكرنى؟

– بيير! بيير من؟

– بيير ترودو، لقد تقابلنا فى روما

صُدِم أرنون وتساءل:

– أجل بيير، كيف وجدتنى؟

– الاستخبارات الكندية ليست عديمة النفع كلياً. أرنون أنصت! لم لا تأتى إلى أوتوا لقضاء العطلة الأسبوعية؟ أريد الحديث معك، سأرسل طائرتى لتقلك.

– يبدو الأمر شائقاً، لكن اسمع نصيحتى ولا ترسل طائرة عامة لتقلنى. سأحضر إليك بأسلوبى.

وجد ميلتشان وترودو أنه بينهما الكثير من القواسم المشتركة. كلاهما كان

مطلقاً وأباً حاضناً وولى أمر لثلاثة أبناء، وكلاهما كان لعوباً مسرفاً. وما بين منصب ترودو الهام كرئيس للوزراء، وصعود ميلتشان كمنتج أفلام شهير، لم يمر وقت طويل حتى بدأت الأوقات الممتعة، من الحفلات الفارهة، للمشاهير، للنبيذ، للنساء، للهو.

"كان مستوى الثقة بيننا غير عادى" هكذا أكد لنا ميلتشان، بل إنه حتى قدم له النصح أثناء قمة مجموعة السبع عام ١٩٨٣ فى ويليامسبيرغ، فيرجينيا. وفى مرحلةٍ ما عُهد إليه ترودو بكومة من الوثائق السرية تصف استراتيجية كندا الكاملة بشأن مجموعة السبع. واستمرت صداقتهما المقربة حتى وفاة ترودو فى ٢٨ سبتمبر عام ٢٠٠٠ .

وإذ تركزت أنظار مصلحة الجمارك الأمريكية والمباحث الفدرالية على شركة ميلكو فى هنتغتون بيتش، كان ميلتشان ينتج فيلماً ويدير صفقة ضخمة لطائرة بى ٨٠ كوين أيرلايت للنقل الجوى الخفيف، وطائرة كينغ إير الإلكترونية لجمع الاستخبارات، وكلتاهما من شركة بيتشكرافت. وكان العمل يسير كالمعتاد.

لكن بالنسبة لميلكو، كان الأمر مختلفاً تماماً. حينما سافر ريتشارد وإميلى سميث إلى أوروبا لحضور مؤتمر لحلف الناتو، أغار عملاء الجمارك الأمريكية حاملين إذن تفتيش فدرالياً، على مكاتب شركة ميلكو فى هنتغتون بيتش فى محاولة لمصادرة كل الملفات المتعلقة بالشحنات إلى إسرائيل. وشرعوا يقلبون المكان رأساً على عقب، لكنهم رحلوا بخفى حنين. إذ إنه كان قد تم نقل الملفات. وتركوا أبناء سميث، الذين كانوا يحرسون الشركة، خائفين ومرتبكين.

ثم فى عشية الكريسماس فى عام ١٩٨٤، وفيما كان ريتشارد كيلى سميث يتفقد بريده اليومى فى شركة ميلكو. وجد خطاباً رسمياً من مكتب المدعى العام

الفدرالى لمقاطعة سنترال كاليفورنيا. وشعر سميث بأن هذا الخطاب لا يحمل خيراً. ولم يكن لديه بديل عن فتحه، وفتحه بيدين مرتعشتين ليقرأ:

عزيزى السيد ريتشارد كيلى سميث

بموجب هذا الخطاب أنت مكلف بالمثول أمام مكتب المدعى الفدرالى فى لوس أنجلوس للإجابة عن أسئلة بخصوص تصدير الكرايترون بدون ترخيص، وللمناقشة بخصوص جرائم كبرى محتملة اقترفتها...

سرت قشعريرة باردة فى جسد سميث. واتصل بشريكه المقرب وحامل الأسهم فى شركة ميلكو براين كارتر، والذى كان محامياً سابقاً فى شركة روكويل إنترناشونال. وصُدِم المحامى، وفهم فى الحال تورط صديقه القديم وقال له "ريتشارد! أنت على وشك أن تقابل أناساً من الحكومة الأمريكية مختلفين تماماً عن الأشخاص الذى تعاملت معهم حتى الآن". وشرح له أن الهدف الرئيسى لوظيفة المدعى العام الفدرالى هو وضع أكبر عدد ممكن من الأشخاص فى السجون الفدرالية، وفى الواقع، كلما زاد عدد الأشخاص الذين ينجح المدعى العام الفدرالى فى إيداعهم بالسجون الفدرالية، زادت العلاوات والحوافز التى يتقضاها.

وكانت تلك حقيقة قبيحة.

أوصى المحامى سميث بأن يُوكّل فى الحال أفضل محام يمكنه العثور عليه ورشح له أحدهم. كانت المكالمة التالية من سميث إلى ميلتشان محاولاً التحدث إليه. ومجدداً، لم يستطع تجاوز ديبورا، أو الجدار الواقى لميلتشان.